

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٨ - سورة ن

وتسمى سورة القلم . وهي مكية . وآيها ثنتان وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (نَ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

[٢] (مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

[٣] (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)

[٤] (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)

« ن » بالسكون على الوقف : اسم للحرف المعروف ، قصد به التحدى . أو اسم للسورة ، منصوب بـ (اذكر) أو مرفوع خبر المحذوف « وَالْقَلَمِ » أى الذى يخط به « وَمَا يَسْطُرُونَ » أى يكتبون . و (ما) مصدرية أو موصولة . وقوله « مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » جواب القسم ، قصد به تكذيب المشركين فى إفكهم المحدث عنه بآية ^(١) : (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) .

قال الزجاج : (أَنْتَ) هو اسم (ما) ، و (بمجنون) الخبر . وقوله (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) كلام وقع فى البين . والمعنى : انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال : أنت بحمد الله عاقل ، وأنت بحمد الله فهم . ومعناه : أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت ، والصفة المذمومة إنما زالت ، بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه . فالباء فى (بِنِعْمَةٍ) متعلقة بمعنى النفى المدلول عليه بـ (ما) والباء فى (بِمَجْنُونٍ) زائدة .

« وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا » أى ثواباً على أذى المشركين ، واحتمال هذا الطعن ، والصبر عليه « غَيْرَ مَمْنُونٍ » أى غير منقوص ولا مقطوع .

(١) [١٥ / الحجر / ٦] .

قال ابن جرير^(١) : من قولهم (جبل منين) إذا كان ضعيفاً ، وقد ضعفت منقته ، أى : قوته . أو غير ممنون به عليك ، زيادة فى العناية به ﷺ ، والتنويه بمقامه .
« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » قال ابن جرير^(١) : أى أدب عظيم . وذلك أدب القرآن الذى أدبه الله به ، وهو الإسلام وشرائعه .
قالت عائشة^(٢) : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن . أى كما هو فى القرآن .
قال الرازى : وهذا كالتفسير لقوله (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) والدلالة القاطعة على براءته ممارى به ، لأن الأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والفصاحة التامة ، والعقل الكامل ، والبراءة من كل عيب ، والاتصاف بكل مكرمة ، كانت ظاهرة منه . وإذا كانت ظاهرة محسوسة فوجودها ينافى حصول الجنون . فكذب من أضافه إليه وضل ، بل هو الأخرى بأن يرى بما قذف به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ)

[٦] (بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ)

[٧] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ » أى أولئك الجاحدون المتفوهون بتلك العظيمة .
« بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ » أى المجنون . والباء مزيدة . أو الفتنة والفتون ذهاباً ، إلى أن المصدر يجرى على زنة المفعول والباء أصلية بمعنى (فى) . أى : من كوشف بأسرار العلوم ، وأوتى جوامع السكم ، أم من حجب عما فى نفسه من آيات الله والعبر ، وفقن بعبادة الضم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .
(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين ، حديث رقم ١٣٩ (طبعنا) ، وهو حديث طويل جمّ الفوائد .

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ » أى : عن طريق الحق الذى أمر به ،
« وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى بمن اتبع الحق ، وسلك سبيله ، فسيمجى الفريقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٨] (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ)
[٩] (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)
[١٠] (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ)
[١١] (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ مَبْنِيٍّ)
[١٢] (مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)
[١٣] (عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ)
[١٤] (أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)
[١٥] (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)
[١٦] (سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ)

« فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ » أى بآيات الله ، وما جاءهم من الحق .

قال الزمخشري : تهيج وإلهاب على معاصاتهم .

« وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » أى : ودوا لو تركن إلى آلتهم ، وتترك ما أنت عليه
من الحق ، فبالثونك - رواه ابن جرير ^(١) عن مجاهد - ثم قال : أى : لو تلى لهم فى دينك
بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلتهم ، فيلینون لك فى عبادتك إلهك ، كما قال جل ثناؤه ^(٢) .
(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَادَفْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ)

(١) انظر الصفحة رقم ٢١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٧٤ ، ٧٥] .

وَضِعْفَ أَلْمَمَاتِ) وإنما هو مأخوذ من الدهن ، شبه التليين في القول بتليين الدهن .
« وَلَا تُطِغْ كُلَّ حَلَّافٍ » أى : كثير الحلف . قال الزمخشري : وكفى به مزجرة
لمن اعتاد الحلف ، ومثله قوله تعالى^(١) (وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ) . « مَهِينٍ »
أى : حقير الرأى والتمييز .

« هَمَّازٍ » أى : عيَّاب طعان : قال ابن جرير^(٢) : والهمز أصله الغمز . فقيل للمفتاب :
هاز ، لأنه يطعن في أعراض الناس بما يكرهون ، وذلك غمز عليهم . « مَشَّاءٍ مِّنْهُمْ »
أى يقال لحديث الناس بعضهم في بعض ، للإفساد بينهم .

« مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ » أى بخيل بالمال ، ضنين به . واخير المال . أو صاد عن الإسلام .
« مُعْتَدٍ » أى : على الناس ، متجاوز في ظلمهم . « أُثِيمٍ » كثير الآثام .

« عَقْلَمٍ » أى جاف غليظ . دعى « بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ » أى : دعى ملصق في النسب ، ليس
منهم . أو مريب يعرف بالشر . قال ابن جرير^(٣) : ومعنى (بعد) في هذا الموضع معنى (مع) .
وقال الشهاب : الإشارة لجميع ما قبله من النقائص ، لا للأخير فقط . وهى للدلالة على
أن ما بعده أعظم في القباحة . فـ (بعد) هنا كـ (ثم) الدالة على التفاوت الرتبى ، ، كما مر في
قوله^(٤) (بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) .

« أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ » قال الزمخشري : متعلق بقوله (وَلَا تُطِغْ) يعنى : ولا
تطعه مع هذه المثالب ، لِأَن كَانَ ذَا مَالٍ . أى : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما
بعده ، على معنى لكونه متمولاً مستظهماً بالبنين ، كذب بآياتنا .
« إِذَا تَنَالَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا » أى : تقرأ عليه آيات كتابنا « قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ »

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٤) [٦٦ / التحريم / ٤] .

أى : هذا مما كتبه الأولون ، استهزاء به ، وإنكاراً منه أن يكون ذلك من عند الله .
وقوله : « سَنَسِمُهُ وَ عَلَى الْخُرُطُومِ » عِدَّةٌ منه تعالى بغاية إذلاله ، بعد تنأى كبره وعجبه
وزهو وعتوه . تقول العرب : وسمته بميسم السوء : يريدون أنه ألصق به من العار مالا
يفارقه . قال جرير (١) :

لما وضعتُ على الفرَزْدَقِ مِيسَمِي وعلى البعِثِ، جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ
قال الزمخشري : الوجه أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه ،
لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه (الْأَنْفَةُ) وقالوا : الأنف في
الأنف ، وحى أنفه ، وفلان شامخ العينين . وقالوا في الدليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه . فعبر
بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذالة ، فكيف
بها على أكرم موضع منه ؟ ولقد وسم العباس أباعره في وجوها ، فقال له رسول الله ﷺ :
أكرموا الوجوه ، فوسمها في جوارعها . وفي لفظ (الخرطوم) استخفاف به واستهانة ،
لأن أصل الخرطوم للخنزير والفييل . وقيل : سفعله يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها عن
سائر الكفرة ، كما عادى رسول الله ﷺ عداوة بان بها عنهم . انتهى .

تنبيه :

قيل : عنى بالآية الأخنس بن شريق . قال ابن جرير (٢) : وأصله من ثقيف ، وعداده
في بني زهرة . أى : لأنه التحق بهم حتى كان منهم في الجاهلية . ولذا سمى زنيا للصوفة
بالقوم ، وليس منهم وقيل : هو الوليد بن المغيرة ، ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة من مولده .

(١) من قصيدته التي مطلعها :

لَعَنَ الدِّيارُ كَأَنَّها لَمْ تُحَلَّلْ بين الكِناس وبين طَلَحِ الْأَعْزَلِ
الكِناس : بيلاد غنى . والأعزل : لبنى كلب وبه ماء يسمى الأعزل . والطلح شجر
من العضاء . (شرح ديوان جرير ص ٤٤٢) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)

[١٨] (وَلَا يَسْتَتْنُونَ)

« إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » أى بلونا مشركى مكة ، فاختبرنا بهذا التنزيل الحكيم ، هل يشكرون نعمته ، فيحيوا حياة طيبة ، أو يصرون على تكذيبه ، فلا تكون عاقبتهم إلا كماقية أهل الجنة فى امتحانهم الآتى ، ثم دمارهم .

وقيل : معناه أصبناهم ببليية ، وهى القحط والجوع ، بدعوة رسول الله ﷺ ، (كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) وهم قوم من أهل الكتاب - على ما روى عن ابن عباس - أو ناس من الحبشة - فى قول عكرمة - أى : كتابيون . فيتفق مع ما قبله ، وليس من ضرورة الاعتبار بالمثل والعظة به ، تعيين أهله ، لولا محبة المأثور « إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ » أى : ليقطعن ثمارها مبكرين بحيث لا يعلم مسكين بذلك « وَلَا يَسْتَتْنُونَ » قال المهايى : أى : ولا يخرجون شيئاً من حق المساكين ، واقتصر عليه . وحكاة الرازى والقاضى قولاً ثانياً . والأول أن معناه : ولا يقولون إن شاء الله - واقتصر عليه ابن جرير^(١) والأول أظهر ، والاستثناء بمعنى الإخراج الحسى ، والجملة معطوفة على لَيَصْرِمُنَّهَا) ومقسم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

[٢٠] (فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)

« فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ » أى فطرق جنة هؤلاء القوم ، طارق من أمر الله

لتدميرها .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال ابن جرير^(١) : ولا يكون الطائف في كلام العرب إلا ليلاً ، ولا يكون نهاراً . وقد يقولون : أظفت بها نهاراً . وذكر الفراء أن أبا الجراح أنشده^(٢) :

أَظَفْتُ بِهَا نَهَارًا غَيْرَ لَيْلٍ وَأَلْهَى رَهْبًا طَلَبُ الرِّخَالِ
و (الرخال) أولاد الضأن الإناث .

فقوله : « وَهُمْ نَائِمُونَ » أى مستغرقون في سباتهم ، غافلون عما يمكر بهم . تأكيد على الأول ، وتأسيس على الثانى « فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » أى كالبلستان الذى صرم ثمره ، بحيث لم يبق فيه شئ . أو كالليل الأسود لاحتراقها . وأنشد في ذلك ابن جرير لأبى عمرو^(٣) ابن العلاء :

أَلَا بَكَرَتْ وَعَاذِلْتِ تَلُومُ تَهْجَدُنِي وَمَا انْكَشَفَ الصَّرِيمُ

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) البيت من شواهد الفراء في معاني القرآن (الورقة ٣٩٣) عند قوله تعالى : فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . قال : لا يكون الطائف إلا ليلاً ، ولا يكون نهاراً . وقد تكلم به العرب فيقولون : أظفت به نهاراً ، وليس موضعه بالنهار ، ولكنه بمنزلة قولك : لو ترك القطا ليلاً لنام . لأن القطا لا يسرى ليلاً .

قال : أنشدنى أبو الجراح العقيلي : (أظفت بها نهاراً ...) البيت اه .

والرخال جمع رخل (بكسر الراء وفتحها) : الأنثى من أولاد الضأن . والذكر : حل . والجمع أرخل ورخال (يكسر الراء وضمها) ورخلان أيضاً (حاشية ابن جرير) .

(٣) نسب المؤلف البيت إلى أبى عمرو بن العلاء . ولعله يريد أنه مما أنشده أبو عمرو .

يقول : استيقظت هذه المرأة قبل أن ينكشف الليل عن الصبح . توقظني حين هبت عاذلتى تلومنى . قال فى اللسان : هجد (قال ابن بزرج : أهجدت الرجل : أنمته ، وهجده) بالتشديد أيقظته والصريم : الليل .

وقال أيضاً^(١) :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ الْجَوْنُ الْبَهِيمُ فَمَا يَنْجَابُ عَنْ صُبْحِ صَرِيمٍ

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ)

[٢٢] (أَنْ أُغْدُوا عَلَىٰ حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ)

[٢٣] (فَانْطَلِقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ)

[٢٤] (أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ)

[٢٥] (وَعَدُوا عَلَىٰ حَرِّ قَدِيرِينَ)

[٢٦] (فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ)

[٢٧] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

« فتنادوا » أى فنادى بعضهم بعضاً « مُصْبِحِينَ » أى وقت الصبح ، ولم يشعروا

= وقال الفراء فى معانى القرآن (٣٣٩) فأصبحت كالصریم : أى احترقت ، فصارت سوداء مثل الليل المسوداه . وفى اللسان (صرم) عن ثعلب : فأصبحت كالصریم أى احترقت فصارت سوداء مثل الليل اه . ويقال : كالشيء المصروم ، الذى ذهب ما فيه . وقيل : الصريم أرض سوداء لا تنبت شيئاً . وقال الجوهري : أى احترقت واسودت (حاشية ابن جرير) .

(١) الجون : الأسود . والبهيم : الخالص السواد ، لا بياض فيه . وينجاب : ينكشف ويزول . وصریم : أى ليل .

وهذا الشاهد فى معنى الشاهد الذى قبله ، وهو أن الصريم بمعنى الليل الشديد السواد (حاشية ابن جرير) .

بما جرى عليهم بالليل « أَنْ أَعْدُوا » أى اخرجوا غدوة « عَلَى حَرِّكُمْ » أى زرعكم « إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ » أى قاصدين قطع ثمارها ، وقد قطعها البلاء من أصلها « فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ » أى يكتمون ذهابهم ويتسارون فيما بينهم « أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ » أى فقير . فالجمله مفسرة . أو (أن) مصدرية . أى بأن .

قال الزخشرى : والنهى عن الدخول للمسكين ، نهى لهم عن تمكينه منه . أى لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل . كقولك : لا أريناك ههنا .

« وَاعْدُوا عَلَى حَرِّ » أى غدوا إلى جنتهم ، على نشاط وسرعة وجية من أمرهم ، أو على منع وغضب « قَدَرِينَ » أى فى زعمهم على ما أصرروا عليه من الصرام وحرمان المساكين . « فَلَمَّا رَأَوْهَا » أى فلما صاروا إليها ، ورأوها محترقا حرثها « قَالُوا إِنَّا لَصَّاكُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » أى أنكروها وشكوا فيها . هل هى جنتهم أم لا . فقال بعضهم لأصحابه : ظنا منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم وأن التى رأوها غيرها : إنا ، أيها القوم ، لصالون طريق جنتنا ! فقال من علم أنها جنتهم ، وأنهم لم يخطئوا الطريق : بل نحن ، أيها القوم ، محرومون ، حرمانا منعمة جنتنا بذهاب حرثها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْ لَا تَسْبَحُونَ)

[٢٩] (قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

[٣٠] (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ)

[٣١] (قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

[٣٢] (عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّمَّا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ)

« قَالَ أَوْسَطُهُمْ » أى أَعْدَلُهُمْ وخيرهم رأيا « أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْ لَا تَسْبَحُونَ » أى :

تذكرون الله وتوبون إليه من خبث نيتكم ، وتخشون انتقامه من الجرمين . وكان أوسطهم وعظّمهم حين عزموا على عزيمتهم الخبيثة ، فعضوه ، فميرهم . « قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى فى ترك استثناء حق المساكين ، ومنع المعروف عنهم من تلك الجنة « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوُمُونَ » أى يلوم بعضهم بعضاً . « قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى متجاوزين حدود الله تعالى فى تفريطنا وعزمنا السيئ « عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا » أى بتوبتنا إليه ، وندمنا على خطأ فعلنا ، وعزمنا على عدم العود إلى مثله . « إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ » أى فى العفو عما فرط منا ، والتعويض عما فانا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

« كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ » أى فى الدنيا لمن خالف الرسل ، وكفر بالحق ، وبغى الفساد فى الأرض . « وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ » أى أعظم منه « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » أى لارتدعوا وتابوا وأنبأوا . فالجواب مقدر . قال الشهاب : لأنه ليس قيلاً لما قبله ، إذ لا مدخلية لعلهم فى كون العذاب أكبر .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : قال ابن القزوينى : استدلل بهذه القصة عبد الوهاب على أن من فرّ من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط ، فإن ذلك لا يسقطها . ووجه ذلك : أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين ، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم . وفيها كراهة الجذاذ والحصاد بالليل ، كما ورد التصريح بالنهى عنه فى الحديث ، لأجل الفقراء .

هذا ، وحكى الزنجشريّ عن قتادة أنه سئل عن أصحاب الجنة : أهم من أصحاب الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتنى تعباً .

وعن مجاهد : تابوا فأبدلوا خيراً منها - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٣٤] (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ)
 [٣٥] (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)
 [٣٦] (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)
 [٣٧] (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ)
 [٣٨] (إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ)
 [٣٩] (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ)
 [٤٠] (سَلَامٌ أَيْهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ)
 [٤١] (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَاتُوهَا بِشُرْكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)
 [٤٢] (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)
 [٤٣] (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ » أى
 فى الكرامة والمثوبة الحسنی ، والعاقبة الحميدة . « مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » أى بما
 ينبو عنه العقل السليم ، فإنهما لا يستويان فى قضيته . « أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ *
 إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ » أى من الأمور لأنفسكم ، وتشتهونه لكم ، كقوله ^(١) : (أَمْ
 ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ) وهذا توبيخ لهم وتقريع فيما كانوا يقولون من الباطل ،

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٠] .

ويتمنون من الأمانى الكاذبة «أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ» أى تقضون من أمانيتكم ومزاعمكم .

قال الزمخشري : يقال : لفلان على يعين بكذا ، إذا ضمنته منه ، وحلفت له على الوفاء به .
يعنى : أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغالطة متناهية فى التوكيد . (وإنَّ لكم لما تحكمون)
جواب القسم ، لأن معنى (أم لكم أيمان علينا) أم أقسمنا لكم . فـ (بالغة) - كما قال الشهاب - معناه المراد منه ، متناهية فى التوكيد . وأصله بالغة أقصى ما يمكن ، فحذف منه اختصاراً ، وشاع فى هذا المعنى .

« سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ » أى : الحكم « زَعِيمٌ » أى كفيل به ، يدعيه ويصححه .
« أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ » أى ناس يشاركونهم فى هذا الزعم ، ويوافقونهم عليه . « فَلْيَأْنُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » أى : فى دعواهم .

قال الزمخشري : يعنى أن أحدا لايسلم لهم بهذا ، ولا يساعدهم عليه ، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد به عند الله ، ولا زعيم لهم يقوم به . ففيه تنبيه على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل .

« يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » قال ابن عباس : أى عن أمر شديد مفضع من هول يوم القيامة . ألا تسمع العرب تقول : شات الحرب عن ساق ؟ - رواه ابن جرير ^(١) .

« وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أى لما أحاط بهم من العذاب الهائل الخائل .
« حَسَمَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِمُهُمْ ذِلَّةٌ » أى : تغشاهم ذلة العصيان السالف لهم . « وَقَدْ كَانُوا يَدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ » أى : لا مانع يمنعهم منه . والمراد من السجود : عبادة الله وحده ، وإسلام الوجه له ، والعمل بما أمر به من الصالحات .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيه :

ما أُرثناه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى (عَنْ سَاقٍ) هو المعنى الظاهر المناسب للتهويل المطرد فى توصيف ذلك اليوم . فى أمثال هذه الآية ، وعليه اقتصر الزمخشري ، وعبارته : الكشف عن الساق ، والإبداء عن الخدام ، مَثَلٌ فى شدة الأمر ، وصعوبة الخطب . وأصله فى الروع والهزيمة ، وتشهير المخدرات عن سوقهن فى الحرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك . قال حاتم^(١) :

أخو الحرب ، إن عَصَّتْ به الحربُ عَضَّهَا وإن شَمَرَتْ عن سَاقِهَا الحربُ شَمَرَا
وقال ابن الرقيات^(٢) :

تُذْهِلُ الشَّيْخَ عن بنيهِ ، وتُبْدِي عن خِدَامِ العَقِيلَةِ العِذْرَاءَ
وجاءت منكرة للدلالة على أنه أمر مبهم فى الشدة ، منكر خارج عن المألوف كقوله^(٣) :
(يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ) ، كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل .

(١) من قصيدته التى مطلعها :

حَنَنْتُ إِلَى الْأَجْبَالِ ، أَجْبَالِ طِيٍّ وحنَّتُ قَلُوصِي أن رَأَتْ سَوَطَ أَحْمَرَ
ص ٦٧ من الديوان .

(٢) فى الديوان : * عن بُرَاها العَقِيلَةُ العِذْرَاءُ *

والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أَقْفَرْتُ بَعْدَ عَبْدِ شَمْسٍ كُدَاءً فَكُدَيْتُ فَالْرُكْنَ فَالْبَطْحَاءَ
كداء : جبل بمكة وهو عرفة . كدئ : جبل قريب منه . الركن : هو الركن اليماني ، ركن البيت الحرام . البطحاء : بطحاء مكة (الديوان ص ٨٧) .

وقال شارح شواهد الكشف : إنما خص الشيخ لوفور عقله وممارسته الشدائد ، وإما لفرط محبته للأولاد . والخدمة : الخلخال . والعقيلة من النساء التى عقلت فى بيتها ، أى خدرت وحبست . وعقيلة كل شيء أكرمه . ورفع الشعواء فى البيت قبله ، وخفض العذراء ، إقواء . يتساهل الشعراء فيه . (٣) [٥٤ / القمر / ٦] .

وقال أبو سعيد الضرير : أى يوم يكشف عن أصل الأمر . وساق الشيء : أصله الذى به قوامه ، كساق الشجر وساق الإنسان . أى : تظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها . فالساق بمعنى أصل الأمر ، وحقيقته . استمارة من ساق الشجر ، وفى (الكشف) تجوز آخر ، أو هو ترشيح له .

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله فى (الفصل) : ما صح عن النبي ﷺ عن يوم القيامة أن الله عز وجل يكشف عن ساقه ، فيخرون سجداً . فهذا كما قال الله عز وجل فى القرآن : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) . وإنما هو إخبار عن شدة الأمر ، وهول الموقف ، كما تقول العرب : قد شمرت الحرب عن ساقها . قال جرير (١) :

أَلَرَبِّ سَامَى الطَّرْفِ مِنْ آلِ مَازِنٍ إِذَا شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَرًا
والعجب ممن ينكر هذه الأخبار الصحاح . وإنما جاءت بما جاء به القرآن نصاً . ولكن من ضاق علمه أنكر ما لا علم له به . وقد عاب الله هذا فقال (٢) (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) انتهى .

هذا وقد ذهب أبو مسلم الأصفهاني إلى أن الآية وعيد دنيوى للمشركين ، لا أخروى . قال : إنه لا يمكن حمله على يوم القيامة ، لأنه تعالى قال فى وصف هذا اليوم (٣) : (وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه : إما آخر أيام الرجل فى دنياه ، كقوله تعالى (٤) : (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ) ثم إنه يرى الناس يدعون

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لَمَنْ رَسَمُ دَارٍ هُمْ أَنْ يَتَغَيَّرَا تَرَاوَحُهُ الْأَرْوَاحُ وَالْقَطَرُ أَغْصَرَا
أى أن القطر يتراوَح مرة ، والرياح تتراوَح أخرى . والأعصر : الدهور (شرح

ديوان جرير ص ٢٤٠) . (٢) [١٠ / يونس / ٣٩] .

(٣) [٦٨ / القلم / ٤٢] . (٤) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] .

إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها ، وهو لا يستطيع الصلاة ، لأنه الوقت الذي لا ينفع نفساً إيمانها . وإما حال الهرم والمرض والعجز . وقد كانوا قبل ذلك يدعون إلى السجود ، وهم سالمون مما بهم الآن ، إما من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت ، أو من العجز والهرم . ونظير هذه الآية قوله ^(١) (فَلَوْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ) انتهى .

قال الرازي : واعلم أنه لا نزاع في أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم . فأما قوله إنه لا يمكن حمله على القيامة ، بسبب أن الأمر بالسجود حاصل ههنا ، والتكاليف زائلة يوم القيامة ، فجوابه : أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقريع والتخجيل ، فلم قلت إن ذلك غير جائز ؟

ثم تأثر تعالى تخويفهم بمظمة يوم القيامة ، بترهيبهم بما عنده وفي قدرته ، من القهر ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

« فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ » أى كله إلى فإنى أ كفيكه ، وهذا من بليغ الكناية . كأنه يقول : حسبك انتقاماً منه ، أن تكل أمره إلى ، وتخلّى بينى وبينه ، فإنى عالم بما يجب أن يفعل به ، قادر على ذلك . « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنكيدهم بالإمهال وإدامة الصحة ، وزيادة النعم ، من حيث لا يعلمون أنه استدراج ، وسبب لهلاكهم . يقال : استدرجه إلى كذا ، أى : استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورطه فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأْمَلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

« وَأْمَلِي لَهُمْ » أى أمهلهم وأنسى في آجالهم ملاوة من الزمان ، لتكمل حجة الله عليهم . « إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » أى كيدى بأهل الكفر شديد قوى .
قال الزمخشري : الصحة والرزق والمدة في العمر ، إحسان من الله وإفضال ، يوجب عليهم الشكر والطاعة ، ولكنهم يحملونه سبباً في الكفر باختيارهم . فلما تدرجوا به إلى الهلاك ، وصف النعم بالاستدراج . وقيل : كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه . وسمى إحسانه وتمكينه (كيداً) ، كما سماه استدراجاً ، لكونه في صورة الكيد ، حيث كان سبباً للتورط في الهلكة . ووصفه بالمثانة لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ)

[٤٧] (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ)

« أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا » أى على ما أنبتهم به من النصيحة ، ودعوتهم إليه من الحق .
« فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ » أى من عزة ذلك الأجر مثقلون . أى أثقلهم الأداء ، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك ، وتجنبوا الدخول فيما دعوتهم إليه . والمعنى : لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً ، فيثقل عليهم حمله حتى يبطئهم عن الإيمان . « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ » أى منه ما يحكمون به ، فيجادلونك بما فيه ، ويزعمون أنهم على كفرهم بربهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به ، وأنهم مستغفون عن وحيه وتنزيله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (فَأُصِرْ إِلَىٰ كُرْهِكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ)

[٤٩] (لَوْلَا أَن تَدَارَكْهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)

[٥٠] (فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَفَجَعَلَهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ)

« فَأُصِرْ إِلَىٰ كُرْهِكَ » وهو إهمالهم ، وتأخير ظهورك عليهم . أى لا يثنيتمك ، عن تبليغ ما أمرت به ، أذا هم وتكذيبهم ، بل امض صابراً عليه « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ » يعنى : يونس عليه السلام « إِذْ نَادَىٰ » أى دعا ربه فى بطن الحوت « وَهُوَ مَكْظُومٌ » أى مملوء غيظاً وغماً . والمعنى : لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والوئى عن التبليغ ، فتبتلى ببلائه « لَوْلَا أَن تَدَارَكْهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ » وهو قبول توبته ورحمته ، تضرعه وابتهاله « لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ » قال الزمخشري : يعنى أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعراء ، ولولا توبته لكانت حاله على الذم . والعراء : الفضاء من الأرض .

« فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ » أى برحمته . قال القاشانى : لمكان سلامة فطرته ، وبقاء نور استعدادده ، وعدم رسوخ الهياة الغضبية ، والتوبة عن فرطات النفس ، فقربه تعالى إليه « فَجَعَلَهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ » أى لمقام النبوة والرسالة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)

[٥٢] (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

« وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ » قال الزمخشري : يعنى أنهم

من شدة تحديقهم ، ونظرهم إليك شزراً ، بعيون المداوة والبغضاء ، يكادون يُزَلُّون قدمك ، أو يهلكونك . من قولهم (نظر إلى نظراً يكاد يصرعني ، ويكاد يأكلني) أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل ، لفعله . قال (١) :

يتقارضون ، إذا التقوا في موطن ، نظراً يُزِلُّ مواطئ الأقدام
وأنشد ابن عباس - وقد مرَّ بأقوام حددوا النظر إليه - :

نظروا إلى بأعين محمرة نظر التيوس إلى شِفَارِ الجازِرِ
ويبين تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم في حال قراءة النبي ﷺ للقرآن ، وهو قوله تعالى : « لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ » أى القرآن ، معادة لحكمته . « وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ » أى من الهذيان الذى يهذى به في جنونه ، لعدم تمالك أنفسهم من الحسد منه ، والتنفير عنه . « وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْمُتَّقِينَ » أى عظة وحكمة وتذكير وتنبيه لهم ، على ما في عقولهم وفطرهم من التوحيد . فكيف يجنن من جاء بمثله ؟ - وبالله التوفيق - .

(١) قال شارح شواهد الكشف :

كل أمر به يتجازى الناس فهو قرض . وهما يتقارضان الثناء ، أى كل واحد منهما يثنى على صاحبه .

يقول : إذا التقوا في موطن ينظر كل واحد منهم إلى الآخر نظر حسد وحنق ، حتى يكاد يصرعه .